الســـــدود

الميلـودي شغمـوم

بداية تدوين يوميات رجل عاطل شبه مثقف قبل انه مات بالربو قبل أن ينهي تدوين وقائع كل أيام الاسبوع .

1 ـ الثـلاثـاء

الذباب . كثر الذباب هذه الايام ، بعد أعوام سنبدأ بتصدير الذباب الى الخارج . أما السكر فمفقود . كذلك الشاي . هل الحياة حياة بدون سكر وشاي ؟ اللحم ؟ لماذا لا نكتفي برائحته ؟ رائحة اللحم ما أجملها ! انهـا كرائحة النساء . فلنشم رائحة اللحم كما نشم رائحة النساء ! حكى أعرابي ، قال : أهل المدن لا يعرفون للحم طعما أو رائحة ، وقد عجزوا جميعا أمامي عن التمييز بين لحم البقر ولحم الحمير وبين لحم الغنم ولحم العنز ، وللصراحة أقول : أنا أيضا كنت من العاجزين ، ولم أسمع بقية الحكاية . فقد سألني أخي الذي يذهب الى المدرسة ويريد أن يصير معلما : على أي شكل تنتقـل الرائحة ؟ هل تنقل على شكل موجات كالغضب أم على شكل حبات كالكراهية؟ استغربت كيف يطرح فتى جائع هذا السؤال ، فهو لا يذهب الى المدرسـة ليصبح انشتاين ، يذهب اليها فقط ليأخذ شهادة تسمح له بالحق الادنى في الشاي والخبز ، لكني مع السؤال فكرت في رائحة اللحم والنساء . قلت : على شكل خنجر ناعم الالم مفرط في الطول والمضاء ، أفرغ كأس الماء في جوفه ـمد كسرة الخبز الى فمه ثم خرج وهو يميل تحت ثقل دفتره . قلت : عندما يصل الى المدرسة سيكون بطنه قد فرغ نهائيا ، فكيف يمكنه أن يسمع ما يقولـه الاستاذ ؟ هل للتعليم من معنى اذا كان التلميذ والاستاذ يعانيان معا من سوء التغذية ؟ تذكرت ما قاله لي مرة : أحس أن معدتي قد أصبحت صغيرة جدا ، لا شك أنها بدأت تأكل نفسها ، شيء طبيعي جدا ، حتى بعض الحيوانـات عندما تجوع تأكل صغارها . شيء آخر : اني لا أشعر بأن لي أمعاء . ما أجمل أن يصبح الانسان بلا معدة ولا أمعاء . عندئذ دخل مخلوق ظل يبيع نفسـه

للاخرين حتى لم يبق منه شيء :

ـ ماذا قالوا لك ؟ ـ قال لي الطبيب اني مصابة بداء السكر ـ ولم يقل لك انك مريضة بداء فقر الشاي ؟ ـ وما هو هذا المرض ؟ ـ هو المرض الوحيد الذي أصبح يعاني من ويلاته جميع الفقراء بدون استثناء ـ لا تمزح يا ولدي ـ اني لا أمزح . هل قال لك انك مصابة بداء تقلص المعدة في الامعاء ؟ ـ هل هذا مرض أيضا ؟ ـ نعم . مرض جديد وعضال . هو في الواقع وباء كالكوليرا واسع الانتشار هذه الايام ، هل تشعرين أن معدتك وأمعاءك تأكل ذاتها ؟ ـ الالم يا ولدي في كل مكان ولم يعد بالامكان تمييز هذا عن ذاك ـ قال لك الجاهل مع ذلك انك مصابة بداء السكر ؟ ـ وأعطاني حبتي أسبرين ثم نصحني بشرب الشاي من غير اضافة سكر اليه ـ مرض السكر يا والدتي لا يعرفه الا الذين يأكلون جيدا ـ لاشك أنه هو أيضا قد تعلم الطب في الخارج ـ بكل تأكيد ـ فهمت الآن لماذا كان يتكلم بالفرنسية ويترجم له الممرض ـ تلك احدى وسائلهم في التعريب ـ آه ! أقصد أنه لا يتكلم العربية ، أي ... لا شيء..

كانت أختي جالسة بنفس الطريقة التي جلست بها الكلبة على مؤخرتها الصغيرة الضامرة حين التفتت نحوها أمي : ألا تذهبين أنت اليوم الى عملك ؟ سألت لا شعوريا : هل وجدت عملا يا زهرة ؟ انتبهت أختي فجأة ولم تعرف بماذا تجيب . تدخلت أمي : عند أسرة فرنسية بالمدينة ، تعمل زوالا وليلا فقط . عدت أتساءل : كيف ؟ الفرنسيون قوم ينامون عادة مبكرا ، فكيف تشتغل عند هذه الاسرة ليلا ؟ غير أن أمي أدركت لماذا سكتت فغيرت الموضوع: وأنت ، الى أين وصلت حكايتك مع الكونترا ؟ هل أقول لها ان الكونترا مجرد وهم واني قد قطعت كل أمل في السفر الى الخارج من أجل العمل ؟ نحن لا نعيش الا بالاوهام ، والاوهام تكو نأحيانا خير معين على تحمل قساوة هذا الواقع الكافر ، لن أحرمها اذ نمن هذا الوهم الذي طالما تمسكنا به جميعا كغرقى تمسكوا بعود ثقاب : قيل انها ستكون هنا بعد شهر تقريبا ، وها أنا أنتظر ـ انك أملنا الوحيد بعد الله . ـ وأملي أنا ؟ نعم . آه . فعلا . وهل لي أنا غيركم؟

ـ الاربعاء :

تقول الاغنية الامازيغية القديمة : اطل السيف / فقال العنق : ها قد عاد حبيبي / سينثرني كالرائحة في كل الشوارع / كأفراد النحل في كل الحدائق / ولن أعود بعد ذلك انسانا تكثر آلامه / سأصير ، أطلب أن اصير طيرا / غرابا ينعي الخراب / للشمس التي لا تموت / وعلى كل فان لكل واحد أحبابه / للعنق الطويل السيف أو المقصلة / وللنفس الغاضبة جدرانا أربعة / وللضائعين الكأس وأحزانها .

ويقول صوت طفلة منهكة : أريد خبزا لوجه الله ، أو لوجه الخبز . كما تريدون . انما اعطوني الخبز ، اني لا أطيق الصبر . اقتربت مني الطفلة

فسألتها : ـ هل تعرفين فرنسا ؟ ـ سمعت عنها ، لماذا السؤال ؟ ـ لان فيها خبزا كثيرا وحليبا كثيرا ، وأما الخبز والشاي فليسا غذاءهم الاساسي ، لذلك يوجدان بكثرة ـ ومن يأتيني بذلك ، ليس لي أحد في هذه الدنيا ؟ ـ سافري بنفسك ، انهم هناك في حاجة الى النساء المصنوعات هنا أكثر مما هم في حاجة الى الرجال المصنوعين هنا ، وحتى هؤلاء الرجال يعيشون أزمة نساء ـ ولكن، الكونترا ؟ ـ تلك هي المشكلة . أقول لك الحق ؟ ـ آه . ـ لا تسافري . ان فرنسا أيضا مجرد وهم ، وسفرك لن يحل لك أية مشكلة . واذا ما حل مشاكلك فلن يكون ذلك الا بطريقة كاذبة ـ هذا رأيك . أنا أريد أن أسافر الى اي مكان، ولو الى طنجة . ـ أما أنا فقد تعبت من السفر ، من الهجرة الى كل مكان ، خاصة الى فرنسا . نحن نبدأ في الهجرة الى فرنسا منذ طفولتنا المبكرة ، منذ أن نبدأ في تعلم الكلام . ثم تستمر الهجرة اذا دخلنا الى المدرسة ، تستمر الهجرة بطريقة حقيقية ، أما اذا وجدنا عملا أو بقينا عاطلين فان الهجرة الخيالية تستمر بكل الطرق ، لكن أعذب من أغاني أم كلثوم ، الهجرة في الرأس والقلب قوية وساحرة كأغاني أم كلثوم . هل تعرفين أم كلثوم ؟ ـ ماتت أم كلثوم ، ومات فريد الاطرش ـ أبدا ، كذبوا عليك ، لن يموتا ما دامت هناك اذاعة وتلفزيون ـ أقول لك ماتا ـ لنفرض لكن عبد الوهاب ما زال حيا ـ عبد الوهاب لا يعجبني دائما ، لا يعرف الغناء مثل أم كلثوم وفريد . هل تذهب الى السينما ؟

ولكي لا نفتح موضوع الافلام العربية والهندية وضعت في يدها ريالا وطلبت منها أن تدعوا الله ليعفو عني من جوع البطن والامعاء ، من الجوع الى أغاني أم كلثوم وفريد ، من الجوع الى الافلام العربية والهندية ، من الجوع الى الكلام ، من الرغبة الجائعة في الشتم والضرب والعض ، من الشعور أحيانا بالميل الى حـ بأكل نفسي وشرب ما يملأ جمجمة الآخرين . لكن الطفلة بدت كالمذعورة ، فعرفت أنها لم تفهم الا قليلا جدا مما دار بيني وبينها ، صرفتها وجلست أحاول صنع سجارة من بعض البقايا . تطلب مني ذلك زمنا طويلا ، الى أن عادت الطفلة ومدت الي علبة « مالبورو » : ـ مـ نأعطاك هذه العلبة ؟ ـ فتاة جميلة جدا ، قالت لي اعطها للشاب الجالس هناك فوق الحجر بباب الكوخ ـ ولم تقل لك ما اسمها ؟ ـ هل عندك ريال آخر ؟ ـ لا ، خذي سجارة اذا شئت ، أختي ؟ أصبح وجهها نظيفا جدا ولم تعد تستطيع محو أثر الاصباغ والاناقة . لن تكون الاسرة الفرنسية الا كنية حان أو مبغى عام في أي مكان من المدينة . ولن تكون يا سعيد أول ولا آخر من يعيش على عائدات فرج أخته . ألم تعش قبل ذلك على عائدات فرج أمك ؟ ان من يدخل سجنا أو يساعد على فتح آخر يوسع رقعة الارض بعدة كلمترات ، فليكن لنا عذاب الدنيا وثواب الآخرة ، تعال أنت ، عمر تعال ـ والله العظيم ما بجيبي ريال واحد هذا اليوم ـ تعال ، قلت لك ـ ماذا تريد ؟

ـ هل ذهبت اليوم الى المدرسة ؟ ـ وماذا تريدني أن نفعل بها ؟ ـ أن تتعلم لتصبح معلما أو دركيا أو أي شيء ـ لمعلوماتك الخاصة يا كبير العائلة : لم أرها منذ عامين ـ اذن كنت تكذب علينا طول هذه المدة ـ كلا ، كنت أخرج ساعة الذهاب الى المدرسة وأعود ساعة الخروج منها . لكن ، بينما يستمع أصدقائي الى ذلك الرجل الذي يعلمنا كل علوم الدنيا ماعدا علم كسب الخبز كنت أنا أبيع وجبات معجون نسيان الدنيا لابناء الموظفين مثله ـ لعل لك الآن رأسمال مهم ؟ ـ طبعا ، حوالي نصف ثمن الكونترا ـ لماذا الكونترا ؟ ـ أريد أن أهاجر الى فرنسا ـ بذلك لن نحل الا مشاكل البنك الشعبي ، أما مشاكلنا (يا أهل هذه الارض المباحة للرؤوس الشقراء سيصبح الذين يكذبون عليكم قوما يكذبون على أنفسهم وكلما ازدادوا كذبا عليكم ازدادوا كذبا على أنفسهم . وسيأتي يوم يكفون فيه عن رؤيتكم ، ذلك يوم سيكفون فيه عن رؤية أنفسهم لانهم سيظلون يغورون داخلها كما تغور رؤوس السلاحف من الخوف داخل أجسادها ، ! انما أنتم لا تنتظروا حتى يأتي ذلك اليوم . لقد زارنا غراب من وطنكم وسمع ما قاله النمل للرب حين تمركزت في الحقول قوافل الجراد . غير أن الغراب كما تعرفون أعور ، ولهذا السبب سمع وما رأى. وقيل انه محظوظ)، ذلك ما تقوله الاسطورة الفرعونية ، نحن كالنمل ، في الهم سواء .

3 ـ الخميس :

جلست كعادتي كل مساء فوق الحجر الذي كان يجلس فوقه أبي وهو الحجر الذي قالت لي أمي عنه بأن الجلوس فوقه مسألة وراثية داخل العائلة لان جدي كان يجلس فوقه هو أيضا كل مساء . أينما أولي أنفي لا أستطيع ان أشم أثر الهواء النقي . هذه الاكواخ لا يطهر قذارتها الا المطر الذي يشبه الطوفان . البارحة حلمت بالطوفان . ثم حلمت بعد ذلك بالزلزال . وقبل أن استيقظ حلمت بالحريق ، وكان أناس سعداء لرؤية اللهيب . كثيرا ما أرى في منامي أشياء مخيفة : حروب أهلية ، انقلابات عسكرية افريقية ، ثورات عربية قديمة وجديدة ، كلاب غريبة ذات أنياب طويلة تنهش قلوبا لم أميز هل كانت بشرية ، جهنم وقد فتحت أبوابها والناس يدخلونها عرايا ، الناس وقد نبتت لهم مكان الاظافر مخالب كالسكاكين المعقوفة ، الحشرات وقد صارت لها جثث ضخمة كجثة الديناصور ، النساء وقد فتحن فروجهن للذئاب تلعق منها البول المختلط بالمني الفاتر ، الرجال يمتصون أيورهم كالرضع الذين يمتصون أصابعهم أو قطع الحلوى ، الارض وقد غزاها الشوك والبحارة الذين بلا هوية . فسرت لي جدتي أحلامي بأنها نتيجة الجوع . ربما كان معها الحق أحيانا . اني في كل تلك الحوادث أشم رائحة الجوع وعندما أستيقظ أجد معدتي وأمعائي تأكل من ذاتها . حتى في الغائط المح آثار الانسجة التي تتكون منها المعدة والامعاء ، وفي عملية التنفس ، أثناء الزفير ، أحس بأجزاء دقيقة من رئتي تخرج

مع الهواء . وفي الدم ، وفي البول ، وفي ضحك الاطفال ، دائما نفس الشعور ، حتى عندما أرى الآخرين يأكلون ، يشربون ، يدخنون ، يتكلمون ، يبولون ، يتنفسون ، يمارسون الجنس ، دائما نفس الشعور . هم أيضا يعيشون ، أقول لنفسي ، نفس المأساة ، حلما مرعبا أثناء الليل والنهار ، لا فرق بين أحلام الكبار والصغار . الصغار أصبحوا يولدون اليوم بلحي وأسنان مسوسة من أثر التدخين ، يولدون فيفتحون أعينهم ليل نهار على أحلام مرعبة وطويلة، والصغار أصبحوا يعيشون اليوم بسرعة ويموتون بسرعة قبل الشيوخ بعشرات الاعوام . تلك مأساتي . تلك مأساتنا يقول صديقي نحن الجيل الذي ولد في عهد الجوع والمخبرين (تعال أيها الطفل ، نعم أنت ، لست طفلا ؟ اذن تعال أنت ، أنت أيضا لست بطفلا ؟ طيب وأين الاطفال ؟) أين اطفال هذا الدرب القذر ؟ وأين فتياته ؟ قيل لي في الحمام ان عند القوادة الخبر اليقين . وقالت لي القوادة العجوز : لا تبحث عن البراءة منذ الآن ، وبقيت أتميز غيظا حتى من الرجل الذي يحلق ذقنه كل يوم بعناية ، حدست أن مروره بهذا الدرب يتم بغاية التمهيد للحملة الانتخابية . قبل أن بتكلم تكلمت : ـ لن نصوت الا عليك . ستصوت كل العائلة عليك ، وكل المعارف والاصدقاء . فكم تدفع هذه المرة ؟ بالمناسبة هذه شروطنا الجديدة : نريد شيخات من خنيفرة وزردة بالمشوي الحقيقي وبذلة لكل عضو من أعضاء فريق الحي ، هل توافق أم نختار غيرك ـ وهل صوتم علي في المرة السابقة كي أوافق ؟ ـ اظنك نجحت ، وهذا هو المهم ـ لقد أكلتم وقبضتم مني تم صوتم على الملحدين ، غير أني لست هنا من أجل الحملة الانتخابية ما دمت ترى أني وحدي ـ اذن جئت تتفقد أحوال رعيتك بهارليم ـ جئت لاقول لك اهرب . لقد بدأت حملة جديدة وأنت شخص له سوابق ـ أنت خالي ، اذا كنت لا تستطيع أن تحمينا من الجوع رغم كثرة ما سرقته منا فاحمنا على الاقل منهم ـ تعرف ان هذه مسألة لا تنفع فيها الوساطات . اقتل ، اسرق ، افعل أي شيء تخرج برئيا بفضل تدخلات خالك ، أما ... ـ أقول لك باختصار أيها الخال : جئت لتغرقني لا لتنقذني . لكن ، مع ذلك ، اذهب مطمئن البال : لم أعد قادر على العمل السياسي بعد أن فقدت أعضائي التناسلية وبعضا من دماغي . اذهب عليك اللعنة الى يوم القيامة ـ طيب . بما أن أمر نفسك لا يهمك فان لك عندي خبرا آخر : أختك ، ـ ماذا تريد منها هي الاخرى ؟ ـ انها في الكومساريا مع أحد اخواننا عرب البترول ـ وبعد ؟ أطلق سراحه ودفعوها الى المحكمة بتهمة السكر والزنى والتشرد ـ وتهمة الجوع ؟ اذهب أنت وهي الى الجحيم ، أنا لا أتدخل في شؤون أحد ـ دعني أخي أمك على الاقل ـ ستعطيك صوتها من غير أن تتعب نفسك ـ شيء آخر : أخوك . ـ قلت لك لن نبيع ـ أخوك يا سيدي أنعم الله عليه بالكونترا ، أنا لم أقم بغير الواجب ـ بعد أن أعطاك طبعا ما جمعه منذ أعوام ، أعرف ذلك طيب . لكنه لن يمكث هناك طويلا ـ لماذا ؟ ـ لان ملايين من العمال أصبحت

مهددة بالطرد . بالمناسبة : هل ستكتبون بعد عودتهم مطرودين ، ومن المحيط الى الخليج : « مرحبا بعمالنا في الخارج » ؟ ـ تلك الاجراءات لن تمسنا نحن لاننا مرتبطون معهم بوضعية خاصة جدا ـ هل تستطيع أن تقول لي يا سيدي العزيز لماذا مستكم الاجراءات المتعلقة بقطاع النسيج رغم هذه الوضعية الخاصة ؟ ـ ذلك شغل الحكومة ـ لكنه أيضا شغل ممثلي المواطنين ـ على كل حال اذا فكرت جيدا فأنا مستعد لاجد لك عملا ـ وتعزز بي عناصر العصابة المكلفة بالدعاية لك ـ لآخر مرة أقول لك اهرب ان الحملة قد شملت اثنين من اصدقائك ـ لآخر مرة أقول لك انج بجلدك .

يمشي كالذئب ، يعيش كالكلب ، انما هو في حقيقته ثعلب ، لا أحد يحترمه . الكل يخاف منه . لكن الكل يتمنى أن يراه في يوم من الايام معلقا من أذنيه . ولن يكون ذلك الا في هذا الدرب وربما أمام هذا الكوخ قرب هذا الحجر الوراثي ، من هذا الحجر ما زلت أشم رائحة أبي ودم ذلك الخائن الذي اغتيل من طرف رجال المقاومة وسقط رأسه فوق هذا الحجر . هو تاريخ حقيقي تاريخ هذا الحجر رغم أنه ليس كله وراثيا . ـ هل رأيت هذه المجلة ؟ ـ ماذا تحمل أنت أيضا من أخبار ؟ ـ مستوى الباكلوريا . لقد كتبت طلبي ـ أنا أيضا سأقدم طلبا ـ صحيح ؟ ـ لن يكون باسمي ، سيكون باسم أختي ـ ولماذا لا تقدم طلبا أنت أيضا ؟ ـ أخشى ان ذهبنا جميعا أن تكثر الثعالب وتفعل كل ما تشاء ـ وماذا تستطيع أن تفعل وحدك ؟ ـ من قال لك اني وحدي ؟ تشتتوا أنتم اذن في أروبا ، في افريقيا ، في أمريكا ، في كل أنحاء العالم ، وعندما تنشب أزمة اقتصادية أو سياسية ستعادون كما صدرتم مجرد علب سردين مصبر متعفن . لماذا لا يفكرون في المعامل الحقيقية مدل الفولكلور والطرق الفخمة ؟ استيقظ يا رجل . ستعود مرة خرى الى أوهامك .

4 ـ الجمعة :

البارحة حلمت بالاطفال يضعون الزهور على قبور الاموات وصور الغائبين ، وكانت في أيديهم كؤوس الشاي والرغيف المحشو بالسكر ، ورغم بقايا الدم في الكؤوس وعلى الخبز فقد كان الاطفال فرحين ويشعرون بأنهم أطفال ، غير أن الازمة عاودتني . وها هي تعاودني هذا المساء أيضا . لا يمكن أن يدخل الهواء ، لا أشعر بذرة هواء داخل الرئتين أو في القصبة . فقط أشعر بالدم يفور . حالة نزيف أو اختناق ، لست تأدري ، لكنها مؤكد ، الهجرة الحقيقية . و ...

شغموم الميلودي